الدّرس الثالث

اللسانيات الحديثة مفهومها، موضوعها، مجالاتها

1- تعريف اللّسانيات:

إن اللسانيات التّي نعنيها يؤرخ لظهورها بداية من القرن العشرين ويُعد كتاب "محاضرات في اللّسانيات العامة" لفردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure (1857-1913) فاتحة ذلك الإنجاز العظيم. واللّسانيات هي المقابل الاصطلاحي العربي للمصطلح Linguisitics في الإنجليزية.

ولقد تم تعريفها بأنها الذي يدرس اللغة البشرية دراسة علمية تقوم على الوصف ومعاينة الوقائع بعيدا عن النزعة التّعليمية والأحكام المعيارية. ولفظة "علم" ضرورية في هذا التّعريف لأنّ من مستلزمات العلمية هو اتباع طريقة منظمة ومنسقة والانطلاق من أسس موضوعية وفرضيات يمكن للدارس التّحقق منها وإثباتها[1].

إنّ مصطلح "العلمية" أو "العلم" من المصطلحات المبهمة، ولأّن تعريف اللسانيات بكونها الدّراسة العلمية للغة لا يجعلها الوحيدة من العلوم التّي يمكن أن تُعرف كما ذكرنا، فالفيزياء الصوتية لها نصيب من ذلك وكذلك بقية العلوم كعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ...إلخ لها ذات النصيب من ذلك وإن اختلفت في زوايا النظر والأهداف والأدوات الإجرائية، وعليه لكي يكون مفهوم "العلمية" هنا خاصا بالدّراسة اللسانية علينا أن نوضّح ذلك. إنّ "العلمية" لها دلالتّان، عامة وخاصة. أما بمعناها العام فهو كون اللغة (الظاهرة العامة) والألسن على وجه التّحديد تستحق أن تكون موضوع اهتمام العلماء وأنّ مجموعة من الأحداث والنظريات أقيمت حولها، أما المعنى الخاص

1 - مبادئ اللسانيات، أحمد محمّد قدور، دار الفكر-دمشق، ودار الفكر المعاصر-بيروت، ط5، 2014، ص15.

أو الضيق لها (العلمية). فهو كون اللسانيات تعالج موضوعا نوعيا (اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة)، وأنّها إلى جانب ذلك تستعمل إجراءات وصفية للّغة تتسم بالتّماسك، وقابلية التّبرير بالنسبة إلى المبادئ التّي تعلنها كل مدرسة أو اتجاه لساني[2].

وفي الإطار ذاته يمكن النظر إلى اللسانيات من زاويتين: الزاوية العامة وهو النظر إليها كنظرية ذات طابع علمي عام كما هو الأمر في بقية العلوم، وعليه نجد أنّ لها من المبادئ العامة ما يمكن تطبيقه على اللغات الطّبيعية بغض النظر عن اختلافها في بنياتها الخاص. وعادة ما تسمى هذه الزاوية من النظر باللسانيات العامة، أو النظرية اللسانية العامة أو النحو الكلّي، أما الزاوية الثانية فهي الخاصة وتعني أنّ اللسانيات تتناول لسانا بعينه كالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية ...إلخ، وعليه تكون هذه اللسانيات مجالا لاختبار المبادئ العامة، وميدان لتقدير مدى فعالية وصحّة ما يقترح من اللسانيات العامة من قواعد ومبادئ كلّية في ضوء تطبيقا على بنيات لسان محدّد[3].

ويكون أيضا من المفيد توضيح المراد بـ "التّعليمية" و"المعيارية" وأثرهما في الإخلال بموضوعية البحث اللساني، إنّ الأغراض التّعليمية تتعارض مع العلمية ذلك أنّ الأهداف المسبقة والأطر السّالفة حول ما يجب بحثه وتفسيره من ظواهر لغوية تتلاءم مع القدرات الذهنية والمستويات التّعليمية للمتعلمين، تعمل على تسطيح المعرفة اللسانية من جهة المضمون أو حتى تغييرها، وشطب بعض الموضوعات، ومن ثمة الحد من النظر إلى الظاهرة دون قيد يحول دون التّعمّق فيها، وبما يفرضه العلم. أمّا المعيارية فهي تقوم على تجاوز الواقع اللساني الفعلي والرّاهن بالبحث في نظمه وقوانينه وحتى تفسيره وأدواته من خارجه أي من لغة مثال في الواقع أو لغة مثال على مستوى الذهن. فما يجب أن يكون وفق نموذج تاريخي أو عقلي وهذه العبارة هي التّحديد لمفهوم المعيار، وعليه المعيارية كالتّعليمية

2 – ينظر في اللسانيات العامة (تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها)، مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت–لبنان، ط1، 2010، ص192-196.

3 – في اللسانيات العامة، مصطفى غلفان، ص196-197.

تتعارض مع العلمية، لكوننا في إطارها ننظر إلى شيء آخر غير اللغة عليه أنّها انفصام معرفي، أو تضليل فكري.

وهناك تعريفات أخرى كـ: "علم اللغة هو دراسة اللغة" [4]، وهو الدّراسة العلمية للغة وذلك يعني أنه مستقل بموضوعه ومنهاجه ووسائله، كما أنه العلم الذي يقوم على ما ثبت من حقائق، ويدرس أو يبحث فيما يمكن إثباته بالتّجربة وعليه أبعد "موضوع نشأة اللغة" من مجاله، وهو العلم الذي تكون دراساته مترابطة متكاملة، والبحث في القوانين العامة في الظاهرة اللغوية هي هدفه و منطلقه[5]. واللسانيات أيضا هي ذلك الحقل المعرفي الذي غرضه تناول الحقيقة اللغوية ككل وإن كانت الدّراسة تنصب على أشكال من التّعبير تبدو مختلفة كالألسن واللهجات ...إلخ، والخلاصة أنها الدّراسة العلمية للغات[6].

أما أميز تعريف لها باعتبار المرحلة التّي ظهر فيها فهو تعريف فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (1857-1913):« إن الهدف الحقيقي الوحيد لعلم اللغة هو أن اللغة تدرس في حد ذاتها ومن أجل ذاتها»[7]. إن هذا التّعريف البرنامج نجد هو شرحه في المحاضرات ذاتها دون الحاجة إلى طلب ذلك عبر الكثير من الشروح التّي تناولتها. فهو يقول إن: « اللغة ينبغي أن تدرس بصورة مستقلة: فقد درست حتى الآن بالارتباط مع أمور أخرى، ومن وجهات نظر العلوم الأخرى»[8]، ويقول في موضع آخر إنه حدد موضع العلم الذي يدرس اللغة (اللسان القومي) ضمن الدّراسة العامة للسان[9]. وقوله هذا واضح في كون المدروس لا يخرج من دائرته التّي تستغرقه والتّي تحمل الخاصية والطّبيعة ذاتها. بل وفي الدّائرة الأوسع، وهي علم الإشارات (السّيميولوجيا):« إن الصفة التّي تميز

---

4 – أسس علم اللغة، ماريو باي، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة-مصر، ط8، 1998م، ص35.

5 – ينظر علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السّعران، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، دط، دت، ص11-12.

6 – اللسانيات، جان بيرو، تر: الحواس مسعودي ومفتاح بن عروس، دار الآفاق، الجزائر، دط، 2001، ص4.

7 – علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، تر: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد-العراق، دط، 1985م، ص253.

8 – المرجع نفسه ، ص35.

9 – المرجع نفسه ، ص37.

نظام الإشارات عن الأنظمة الأخرى لا تظهر بوضوح إلا في اللغة .... [كما] أن مسألة اللغة هي في جوهرها مسألة علم الإشارات»[10].

ويظهر أيضا المقصود بالعبارة التّي عرّف من خلالها اللسانيات في إحدى محاضراته والتّي عنوانها "العناصر الدّاخلية والخارجية للغة"، ومن خلال مفهوم اللغة عنده وكما أشار إلى ذلك:« إن التّعريف الذي قدّمته للغة ينطوي على إبعاد كل شيء يقع خارج كيانها ونظامها –أو بعبارة أخرى كلّ ما يعرف "بعلم اللغة الخارجي"»[11]. ويأتي في مقدمة ما ليس من قضايا اللغة، وليس له رباط بطبيعتها، المسائل اللغوية التّي لها صلة بعلم السّلالات البشرية، والعلاقات التّي تربط تاريخ لغة ما بتاريخ شعب من الشعوب، أو حضارة من الحضارات وتلك التّي تربط اللغة بالتّاريخ السّياسي من مثل الغزو الاستيطان الذي لا ينكر تأثيره في وجود عدد كبير من المفردات والظواهر اللغوية في اللغات التّي خضع أصحابها للاستعمار والهيمنة من قبل دول أخرى تختلف عنها لغة. ويضاف إلى ذلك العلاقة التّي تربط اللغة بالمؤسسات التّي لها أيضا التّأثير الواضح في اللغة المستعملة كالكنيسة والمدرسة والصالونات الأدبية وأدب البلاط والمجامع اللغوية القومية. وأخير الانتشار الجغرافي للغات، وتفرعها إلى لهجات. إن كل المذكور مما يسمى العناصر الخارجية للغة لا تأثير له في تغيير نظام اللغة. إن نظام اللغة الذي لا يخضع للتغيير هو اللغة في ذاتها[12].

ولا بأس من الإشارة إلى تعريفات أخرى للسانيات بعيدا عن اختزالها في المفهوم البنيوي، فهي العلم الذي يختص بمجال اللغة، أو هي الدّراسة العلمية للغة[13]، والعبارة التّعريفية الأخيرة تستبطن معنى أن اللسانيات علم تجريبي أكثر منه حدسي أو تأملي، وأنه موضوعي أي أنه بعيد كل البعد عن

10 – علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ص35.

11 – المرجع نفسه ، ص39.

12 – ينظر المرجع نفسه ، ص39-41.

13 – اللغة وعلم اللغة، جون ليونز، تر: مصطفى التّوني، دار النهضة العربية، القاهرة–مصر، ط1، 1987، 49/1.

كل التّحيزات الاجتماعية والثقافية والقومية. وأنها مفاهيم حديثة في مقابل مفاهيم النحو التّقليدي[14].

ويختار لها رومان جاكسون Roman Jakobson (1896-1982م) تسمية البنيوية. وأن اللساني في ضوئها: «حين يدرس ... أية مجموعة من الظواهر فهو لا يعالجها كتكتّل آليّ، بل ككل بنيوي، والمهمة الأساسية هي القوانين الدّاخلية لهذا النظام سواء أكانت قوانين ثابتة أم متطورة. فلم يعد المثير الخارجي مدار الاهتمام العلمي، وإنّما المقدمات الدّاخلية للتّطور بحيث يفضي، الآن، التّصوّر الآلي للعمليات إلى مساءلة وظائفها»[15].

2- موضوع اللسانيات:

إن الفرق الاصطلاحي بين "موضوع اللسانيات" من جهة و"اللغة" من جهة ثانية عند دو سوسير Ferdinand de Saussure (1857-1913) يظهر على مستوى التّسمية والتّوزيع على صفحات أوراق المحاضرات (محاضرات دو سوسير). أما من ناحية المضمون فليس من فرق سوى أنهما لبعضهما بعضا شرح وتوضيح.

إن موضوع اللسانيات أو مادتها تشمل جميع مظاهر الكلام عند الإنسان، فلا فرق بين لغة المجتمعات البدائية (لا المتخلفة) ولغة الشعوب المتمدنة، ولا فرق بين لغة مرحلة ما من مراحل حضارة شعب ما ولغة مرحلة متأخرة من مراحل الحضارة ذاتها، ولا فرق بين مستوى لغوي وآخر عند شعب من الشعوب فالدّارس في مجال اللسانيات لا ينبغي له أن يكتفي بدراسة ما يسمى اللغة الصحيحة (المرجع المعياري) أو اللغة الأدبية أو الشعرية، بل عليه أن يتعداه إلى دراسة كل أنواع التّعبير الأخرى.

---

14 - اللغة وعلم اللغة، جون ليونز، 1/51-52.

15 - الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، رومان جاكبسون، تر: علي حاكم صالح وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان، ط1، 2002، ص13.

وإذا لم يكن بالإمكان الحصول على الموضوع الشفوي أو المادة المنطوقة فله أن يطلبه (الموضوع أو المادة) في النصوص المكتوبة[16].

أما اللغة فمفهومها يكاد يكون موزعا على عدد كبير من صفحات المحاضرات وتعريفها من حيث هي نظام أميز ما يلاحظ فيها: أنها:« نظام من الإشارات جوهره الوحيد الرّبط بين المعاني والصور الصوتية»[17]. وهي نظام اجتماعي كبقية الأنظمة السّياسية والقانونية وغيرهما[18]. وهي نظام من الإشارات التّي تعبر عن الأفكار أو المعاني[19]. وإنّ :« الصفة التّي تميز نظام الإشارات عن الأنظمة الأخرى لا تظهر بوضوح إلا في اللغة ... إنّ مسألة اللغة هي في جوهرها مسألة علم الإشارات»[20]، ويقول أيضا:« اللغة نظام له ترتيب خاص به، ويمكن توضيح ذلك بتشبيه النظام اللغوي بالشطرنج ... أمّا إذا قلّلْنَا من أجزاء الشطرنج أو أضفنا إليها فإن هذا التّغيير له أثر كبير في اللعبة ... فكل شيء يُحدث تغييرًا في النظام بأي أسلوب كان إنما هو داخلي»[21]. واللغة من حيث هي نظام يعني أنّ بين عناصرها من علاقات يقوم على شيء من المنطق ومن هذه الناحية ليست اللغة اعتباطية كما هو الشأن مع الإشارة أو العلامة اللغوية. إنّ النظام (اللغة) شيء معقد لا يمكن فهمه إلاّ بعد نظر أو تأمل[22]. وعند ج. فندريس Joseph Vendryes (1875-1960م) هي نظام من العلامات، ويُعنى بالعلامة كلّ رمز قابل لأن يستعمل كأداة للتفاهم بين البشر، ولأن مفهوم الأداة مطلق فهو يشمل لغة الحواس، وكل أشكال التّواصل الأخرى بما فيها اللغة السّمعية أو لغة الكلام أو اللغة الملفوظة. فقد خُصّص مفهومها في هذا الأخير لكونه أكثر من غيره وسيلة في التّعبير تنوعا

16 – علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ص24.

17 – المرجع نفسه ، ص33.

18 – المرجع نفسه ، ص34.

19 – المرجع نفسه ، ص34.

20 – المرجع نفسه ، ص35.

21 – المرجع نفسه ، ص41.

22 – المرجع نفسه ، ص92.

وثراءً؛ ولعله لهذا السّبب سماها كلاما[23]. وعند إ. سابير Edward Sapir(1884-1939م) طريقة إنسانية بحتة غير غريزية تستعمل لتوصيل الأفكار والانفعالات والرّغبات بواسطة الرّموز التّي تُنتج إراديا وهي عند برنارد بلوخ Bernard Bloch (1907-1965م) وجورج ليونارد تراجر Trager George Leonard(1906-1992م) عبارة عن نظام اجتماعي من الرّموز المنطوقة ذات العلاقة الاعتباطية والتّي تتخذ كأداة تعاون في المجموعة البشرية. وعند موريس هالّ Morris Halle(1923-.....) اللغة نمط اجتماعي منظم، يتواصل بها البشر بواسطة رموزها الاعتباطية المسموعة ـ المنطوقة والمعتاد استخدامها، كما يتفاعل بها الواحد مع الآخر، ويعرفها روبرت هنري روبنز Robert Henry Robins (1921-2000م) بأنها نظام من الرّموز العرفية أو الاعتباطية والمرنة وقابليتها للتغير والتّكيّف. وعرفها نعوم تشومسكي Noam Chomsky (1928-.... م) على أنها مجموعة (محدودة أو غير محدودة) من الجمل، كل جملة منها لها طول، وتتركب من عدد محدود من العناصر[24].

3- مجال اللسانيات ومهامها:

إن مجال اللسانيات يستغرق وصف تاريخ جميع اللغات المعروفة، كما يعني بتتبع تاريخ الأسر اللغوية، فضلا عن إعادة بناء اللغة الأم لكلّ أسرة، على قدر الإمكان. تحديد القوى الكامنة والتّي تعمل بصورة دائمة وعامة في جميع الألسن، واستخلاص القواعد العامة من جميع الظواهر التّاريخية من حيث هي خاصة. ويضاف إلى ذلك أنّ من مجالها تحديد نفسها ومعالمها[25]. ويحرك هذه القائمة من المهام حافزان أساسيان هما البحث عن التّعميم، والتّأسيس لعلم نافع[26].

---

23 – اللغة، ج. فندريس، تر: عبد الحميد الدّواخلي ومُحَمَّد القصّاص، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة –مصر، دط، 1950م، ص31-32.

24 – نقلا عن اللغة وعلم اللغة، جون ليونز، ص4-9.

25 – علم اللغة العام، سوسور، ص24.

26 – النظريات اللسانية الكبرى (من النحو المقارن إلى الذرائعية)، ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، تر: مُحَمَّد الرّاضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت–لبنان، ط1، 2012، ص108.

ولعل من بين أهم مهامها هدم كل الأفكار غير العلمية التّي ارتبطت بها. فشيء من الخلط والأوهام والخرافات والآراء الواهية والمواقف المتحيّزة كان من بين ما ميزها أكثر من غيرها من فروع المعرفة الأخرى، وعليه لابُدَّ من شجبه وتصحيحه كلما وَجَدَ اللساني (الباحث) إلى ذلك سبيلا[27].

وفي موضع آخر من المحاضرات يشير دو سوسير إلى أن الهدف الواضح للسانيات وبشيء من التّفصيل. هو تعريف اللغة أو الموضوع، وذلك بتحديد موضوعه بنفسه من حيث أنّه الجوهري في مقابل الفردي أو العرضي أو الثانوي (الكلام)، وأنه نظام سواء أكان ثابتا أم متطوّرًا، وبيان الفرق بينهما وبين اللسان، ثمّ علاقتها ببقية العلوم وعلى وجه التّحديد تلك التّي لها بها صلة واضحة، أو تلك التّي تستغرقها كعلم الإشارات[28].

27 – علم اللغة العام، سوسور، ص25.

28 – المرجع نفسه ، ص26-36.